الشاعرة فدوى طوقان

في مرحلتها الذاتية

د. عربية توفيق
كلية الآداب – جامعة بغداد

ليس غريباً ان يعلو صوت المرأة مرة اخرى ليحتل مكانه في الميدان الادبي في عصرنا الحديث بعد ان كادت عصور الظلام ان تقضي على هذا الجنس وتسلبه انسانيته وارادته . فقد كان ظهور المرأة في ميادين الادب " اثراً طبيعياً لمد التطور وانطلاق تيار التحرر بالمرأة العربية الى اقصى المدى الذي يمكن ان تحتمله ظروف عصرنا واوضاع مجتمعنا . وكما سايرت الحركة النسوية حركة البعث القومي في مراحلها الاولى ، ظلت تسايرها على طول الطريق ، فخاضا معاً معركة التحرير ، وطال وعي المرأة الجديدة لذاتها ، نتيجة حتمية للوعي القومي العام ، كما كان نضال المرأة عن وجودها ، بعض نضال عن وجودهم"[١].

وقد هيأ التطور الفكري والاجتماعي الذي اجتاح بلادنا العربية للمرأة ات تدخل الميدان الادبي مرة اخرى لتعلن عن جودها وتشارك قومها قضاياهم القومية والتحريرية .

وفي بحثنا هذا نتناول واحدة من ابرز شاعرات العصر اللواتي استطعن ان يملأن الساحة الادبية بعطائهن المتميز وان تسد الفراغ الذي احدثته عصور التخلف من الشعر النسوي ، هذه الشاعرة هي فدوى طوقان ابنة فلسطين العربية .

والسؤال : لم فدوى طوقان بالذات دون غيرها من بنات حواء هي التي اختارها لتكون مادة بحثي ..

والجواب .. ان فدوى طوقان ابنة فلسطين الوطن السليب هذه الشاعرة التي تميزت بعطائها الكثير اشارت اليها اصابع الاتهام من قبل كثير من الباحثين بانها شاعرة شغلت بهمومها الخاصة وذاتيتها الفردية لاسيما في نتاجاتها الاولى على الرغم من انها عاشت في قلب المأساة التي ابتلى بها وطنها فلسطين .

والحقيقة ان فدوى ظلت اسيرة نفسها طيلة دواوينها الثلاث الاولى " وحدي مع الايام " الذي صدر عام ١٩٥٢ ، و " وجدتها " عام ١٩٥٧ و " اعطنا حباً " عام ١٩٦١ ولكنها ادركت فيما بعد هذا الموقف فحاولت ان تغير من وترها الذاتي الى وتر قومي وانساني وان تتفاعل بشكل اعمق مع قضايا الوطن والامة، فاصدرت ثلاثة دواوين اخرى هي" امام الباب المغلق " عام ١٩٦٧ و " الليل والفرسان " عام ١٩٦٩ ، و " على قمة الدنيا وحيداً " عام ١٩٧٣ حاولت فدوى في هذه الدوواين ان تجعل من القضية الفلسطينية عنصراً اساسياً وملحماً رئيسياً لايكتمل وجهها الشعري بدونه فركزت في نتاجها هذا على الوجه القومي ورسم البطولة الفلسطينية وواكبت المشهد الفدائي مواكبة تكاد تكون تفصيلية ، حتى اصبحت فلسطين وجداناً داخلياً في كيان الشاعرة .

ان دراسة اي شاعر تحتاج بلا شك الى معرفة العوامل التي اسهمت في تكوين اتجاهاته وفنونه تلك العوامل ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببيئته ونشأته وشخصيته ومكونات ثقافته والاتجاهات الادبية والفنية السائدة في عصره .

وفدوى في مرحلتها الذاتية كانت خاضعة لعوامل وظروف جعلتها تعيش منعزلة عن واقعها ومجتمعها ، منها مايتعلق بنشأتها والبعض الاخر بمكونات ثقافتها .

ولدت فدوى في مدينة نابلس في الفترة التي تؤرخها لنا بنفسها حيث تقول: "بين عالم يموت وعالم على ابواب الولادة خرجت الى هذه الدنيا ، الامبراطورية

العثمانية تلفظ اخر انفاسها وجيوش الحلفاء تواصل فتح الطريق لاستعمار غربي جديد – ١٩١٧"[٢] ونشأت في جو عائلي تحكمه التقاليد المورثة والاعراف الاجتماعية المتزمتة التي كانت تنظر للمرأة نظرة دنيا عن اخيها الرجل لاسيما وا ترتيبها هو السابع بين اخوتها العشرة ولذلك قوبلت ولادتها بغير ترحاب . فوالدها رجل يحمل في سر تكوينه روح الاصرار والتحدي المضاد وكان يطمع بصبي خامس ، ولكن مجيء فدوى خيب امله وتوقعه[٣] . اما الام فقد شغلتها كثرة الاطفال عن الالتفات لطفلتها ومنحها المزيد من الحنان . تقول فدوى " لا احب ان اظلم امي ولكنها على اية حال لم تكن متفرغة لي ولامشتاقة بل اسلمتني الى صبية كانت تعمل في المنزل اسمها (السمرة) لتقوم برعايتي وكان على امي وظيفة ارضاعي فقط "[٤] .

اما عن ظروفها الحياتية فتحدثنا فدوى قائلة : " لم تكن الظروف الحياتية التي عاشتها طفولتي مع الاسرة لتلبي حاجاتي النفسية ، كما ان حاجاتي المادية لم تعرف في تلك المرحلة الرضى والارتياح واذا كانت الطفولة هي المرحلة الحاسمة التي ترسم الشخصية وتقررها لما لها من اهمية في حياة الفرد فان طفولتي – لسوء الحظ او لحسن الحظ – لم تكن بالطفولة السعيدة المدللة[٥] .

وهكذا عاشت فدوى وسط حرمان ، حرمان من العطف والحنان وحرمان من تحقيق رغباتها الطفولية " كنت اتلهف للحصول على شيء غير الطعام ، حلق ذهبي او سوار او فستان جميل ثمين او دمية من دمى المصانع ، كنت اتلهف للحصول على حب ابوي واهتمام خاص ، وتحقيق رغبات لم يحققاها لي في يوم ما "[٦] .

وقد لعبت الظروف الصحية دورها في حياة فدوى فقد كانت على الدوام طفلة معلولة منهكة بحمى الملاريا التي رافقت سني طفولتها فقد اصبحت الآثار التي تركها المرض من شحوب ونحول مصدراً للتندر للفكاهة ولطلاق النعوت الجارحة التي اذت نفسيتها وارهقت مشاعرها[٧] وكبرت فدوى وكبر معها

احساس بالظلم ، فقد شعرت فدوى بانها تعيش وسط اسرة لاتأبه بها او تقيم وزناً لمشاعرها يضاف الى ذلك الحصار الذي كانت تقيمه الاسرة على المرأة في بيتها بشكل عام والذي لم تنجح منه حتى امها . تقول فدوى " كنت احس بوجود خيط من الشقاء اللامنظور يمتد في اعماقها ، وحين كبرت عرفت مصدر ذلك الشقاء الخفي ، انه الحصار والقهر الاجتماعي المفروض على المرأة في بيتنا"[٨] .

ومما زاد هذا الاحساس في نفس فدوى اجبارها على ترك الدراسة بعد ان اكملت المرحلة الثانونية وحين حاولت ان تعبر عن تمردها لم تجد غير التفكير بالانتحار لانه الوسيلة الوحيدة التي يمكنها من خلاله ان تمارس حريتها المستلبة ، كما انه امكانيتها الوحيدة للانتقام من الظلم الذي فرضه عليها اهلها[٩] وانتصر هروبها من الواقع على الهروب من الحياة فتحصنت بالعزلة ، وتعاظمت قدرتها على الانفصال عن عالم الواقع والاستغراق في احلام اليقظة ، ومن خلال تلك الاحلام كانت تنطلق خارج قضبان السجن .

هذا الحصار النفسي الذي احاط الشاعرة طيلة سني حياتها الاولى ، لم يخفف وطأته عنها غير وجود اخيها ابراهيم الذي كان عطفه وحبه واهتمامه بها هو الشيء الوحيد الذي يضفي على نفس اخته شعوراً انسانياً بالرضى ، فقد كان حنانه المصح النفسي الذي انقذها من الانهيارات النفسية[١٠] ، بل كان حبل السلامة الذي انتشل فدوى من بئر نفسها الموحشة المكتنفة بالظلام[١١] .

ثقافتها ومكونات شخصيتها الادبية :

تلقت الشاعرة فدوى طوقان دراستها في نابلس التي لم يكن فيها انذاك غير مدرستين للبنات (المدرسة الفاطمية) الغربية و (المدرسة العائشية) الشرقية، وكان اعلى صف فيها هو الخامس الابتدائي . امضت ثلاث سنوات الاولى في المدرسة الفاطمية ثم انتقلت مع الصف كله الى المدرسة العائشية[١٢] . ولم تستطع اكمال دراستها الا انها استطاعت ان تثقف نفسها بالدراسة الشخصية

فدرست النحو والصرف وحفظت الكثير من الشعر القديم والحديث كما قرأت الكثير من الكتب القديمة والحديثة ، وكانت معجبة باسلوب احمد حسن الزيات ومجلته الرسالة ، وكذلك مجلة الثقافة[١٣] . اما هواياتها فكانت تميل الى حفظ الشعر وترديده ثم قرضه ، كما كانت تهوى الموسيقى والغناء مما رفعها الى ان تتعلم العزف على العود من احدى قريبات امها[١٤] هذا بالاضافة الى متابعتها لتعلم اللغة الانكليزية .

تعلمت نظم الشعر على يد اخيها ابراهيم طوقان الشاعر المعروف الذي اخذ يتعهد موهبتها بالعناية والتوجيه ، وتأثرت بادئ ذي بدء بالشعراء القدامى بتأثير من اخيها ، فقد كان للتراث قداسة في وجدانه والتحقت بالتراث سنين عديدة ، وظل خلالها هو النموذج الذي تحتذيه في محاولاتها الشعرية على امتداد الفترة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٤٠م . وظل اهتمامها منصباً على ما يسمى بالديباجة والتعابير الفخمة وظل هذا الاهتمام ينمو ويتضخم الى حد كانت تشعر معه انها تنصرف عن التجربة الشعرية الحقيقية . تقول فدوى :

" في الحقيقة ان حكاية الديباجة الكلاسيكية هذه والاهتمام الكلي بالكلمة وزينها وباسلوب التعبير المصنوع كل هذه كنت احسها سداً يقف دون الحركة والتدفق والانطلاق بعفوية وصدق خلال عملية النظم ، كنت احس بالتصنع يدب في ثنايا اشعاري ويلصق بها صفة الجفاف واليبوسة ، ولم اكن اعرف كيف انبعث في قصيدتي النسخ المفقود ولا من اين استمده .. كنت انحت من صخر فعلاً . وكان هناك شيء يكبل الجيشان العاطفي في داخلي ويحول دون جريان التيار النفسي في قصيدتي بسهولة ويسر ولم اهتد الى اصالتي الا يوم هداني الدكتور محمد صندور الى ادب المهجر حين شرع بنشر سلسلة من المقالات النقدية حول الادب المهموس في مجلة الثقافة المصرية بداية عام ١٩٤٠ والتي تناول فيها ادب المهجر بشقيه الشعر والنثر ، وجدت ان شعر اولئك الشعراء المهجريين اقرب الى تكويني النفسي وتركيبي الذهني[١٥] " .

وقد اعجبت بشكل خاص بالشاعر ابي ماضي كما اعجبت وتأثرت بشعراء جماعة ابولاو ولاسيما ابراهيم ناجي والشابي وعلي محمود طه والتيجاني[١٦].

كان لظهور التيار الابداعي في الربع الاول والثاني من هذا القرن تأثير كبير على شعراء الوطن العربي عامة وشعراء فلسطين بشكل خاص ، وقد اخذ تأثير هذا الاتجاه يتعاظم بعد الحرب العالمية الثانية وبلغت درجة تأثيره حدها بعد وقوع كارثة فلسطين سنة ١٩٤٨ التي ارغمت ابناء فلسطين بسببها على النزوح من وطنهم ولجوء القسم الاكبر فيهم الى الاقطار العربية ، وقد ظهر اثر هذا الاتجاه قوياً في شعر فدوى طوقان لاسيما في نتاجاتها الشعرية الاولى[١٧]. ومن هنا بدات تقدير ظهورها للديباجة العباسية كما تقول ، واصبح مطمحها الاكبر هو كتابة شعر يستمد جماله من البساطة والدنيوية والصدق والصياغة الشعرية الخالية من التكلف[١٨].

وفي اواخر الاربعينات برزت دعوة نازك الملائكة لتطوير شكل القصيدة العربية المعاصرة بقصيدة التفعيلة واستطاعت نازك ان تقنع شعراء الخمسينات بهذا الشكل الشعري الجديد الذي صادف هوى في نفس فدوى واصبحت من اشد المتحمسين له[١٩] .

اما تفاعل الشاعرة فدوى مع الاحداث الهامة فنترك للشاعرة الحديث بقولها: " لم يكن بمستطاعي التفاعل مع الحياة بالصورة القوية التي يجب على الشاعر ان يتفاعل بها . كان عالمي الوحيد في ذلك الواقع الرهيب بخوائه العاطفي هو عالم الكتب ، كنت اعيش مع الافكار المزروعة في الكتب معزلة عن عالم الناس "[٢٠] اما عن موقفها من السياسة فتقول : "وانا في تلك الحال من الحصر النفسي والاغتراب كأن ابي يأتي الي طالباً مني كتابة الشعر السياسي ، كان يريدني ان املأ المكان الذي تركه ابراهيم ، فكلما برزت مناسبة وطنية او سياسية اقبل علي يسالني الكتابة في الموضوع وكان صوت في داخلي يرتفع بالاحتجاج الصامت : كيف وبأي حق يطلب مني والي نظم الشعر السياسي وانا

حبيسة الجدران ، لا احضر مجالس الرجال ولا اسمع النقاشات الجادة ولا اشارك في معمعة الحياة ، حتى وطني لم اكن قد تعرفت على وجهه بعد"[٢١] "فلم تكن البيئة البينية التي نشأت فيها ملائمة لخلق روح الاهتمام بالعالم الخارجي وما يدور فيه من صراع "[٢٢] . وفي اعتقادها انه على الشاعر ان يعرف الحياة والعالم من حوله قبل ان يعالجها بشعره والاتصال بالحياة الخارجية كان محرماً على نساء العائلة فلا نشاطات اجتماعية ولااهتمامات سياسية[٢٣] . ومع هذا الوضع المعزول كلياً لاغرابة ان يخلوا جو الدار النسوي كما تقول الشاعرة من اي وعي سياسي او اجتماعي[٢٤] .

ولعل في هذا مايفسر لنا سر ابتعاد فدوى عن معالجة الجوانب السياسية والاجتماعية وانسياقها مع الجوانب الذاتية والوجدانية لاسيما في دواوينها الثلاث الاولى . لقد كانت فدوى تحس بهذا النقص وتعترف به ، بل نحس المرارة في قولها : " ففي هذه المرحلة بالذات عانيت صراعاً نفسياً ومكرباً حاداً، فكيف استطيع ان اكافح بقلمي من اجل التحرر السياسي او العقائدي او الوطني وظل يعوزني الاختمار السياسي كما كنت افتقر الى البعد الاجتماعي ، لم يكن لدي سوى ذلك البعد الادبي وكان بعداً ناقصاً"[٢٥] .

واضح مما سبق ان الظروف الحياتية والمكونات المتنافية ، كان لها الاثر الكبير في تحديد مسارات فدوى الشعرية ، فقد صبغت تلك الظروف شخصية فدوى بالصبغة الوجدانية وجعلتها تعيش لذاتيتها وقد اظهرت معالم هذا التأثير في نتاجاتها الاولى ولذلك وجدنا ان نخصص هذا البحث لدراسة هذا الجانب من شعرها اما الجانب القومي والسياسي وهو المرحلة الثانية من حياتها فسنفرد له بحثاً خاصاً .

شعرها الذاتي :

احتل التيار الذاتي مساحة واسعة من نتاج فدوى الشعري وقد تمثل هذا الاتجاه في عديد من المحاور هي :

اولاً – الاتجاه الى الطبيعة والاندماج فيها وتشخيصها والتماس العزاء لديها :

ففي قصيدتها مع المروج[٢٦] تقول فدوى :

هذي فتاتك يامروج فهل عرفت صدى خطاها
عادت اليك مع الربيع الحلو يامثوى صباها
عدت اليك ولارفيق على الدرب سوى رؤاها
كالامس ، كالغد ، ثرة الاشواق .. مشوباً هواها

ثم تقول :

قد جئت ، ها انا ، فافتحي القلب الرحيب وعانقيني
قد جئت اسند ههنا راسي الى الصدر الحنون
واظل انهل من نقاء الصمت ، من منبع السكون
فهنا بحضنك استريح ، اغيب اغرق في حنيني

فالطبيعة عند فدوى هي الصدر الحنون الذي يستقبلها ويخفف عن كاهلها احزانها ، ولايقف دور الطبيعة عند هذا الحد عند فدوى بل تشاركها مشاركة وجدانية وتستجيب لها بما يتلائم واحوالها النفسية .

الفضاء الخالد اربد وغشاه السحاب
وبنفسي ، مثله يجثم غيم وضباب
وظلال عكستها في اشباح الماء[٢٧]

وفي قصيدتها " الشاعرة والفراشة "[٢٨] تهيم مع الطبيعة مؤخوذة بصورها الخلابة تحاول ان تلتهم الكون باحساسها وبقلبها ، وعلى الرغم من احساسها بجمال الوجود تخرج عن نطاق ذاتها بما يلائم خوالجها في الطبيعة الخارجية التي تلونها باحساسها . فترى في الفراشة التي تجندلت في الثرى تودع انفاسها الاخيرة صورة الحياة الزاهية المرحة التي سرعان ماتسقط وحيدة لايابه بها احد

ولايبكي عليها قلب فتشفق عليها حانية لانها ترى فيها صورتها الحزينة وسط هذا الكون الشاسع ولكنها على الرغم من ذلك وحيدة لاصاحب يذكرها ولارفيق فتشعر بقسوة الموت الذي ينتهي بكل شيء جميل الى كهف الفناء السحيق .

فتقول :

اهكذا في فوران الصبى يطويك اعصار الفناء المريع

وحيدة لاشيعتك الربى ولابكى الروض بقلب صريع

اختاه لاتاسي فهذا انا

ابكيك بالشعر الحنون الرقيق

قد انطوى مثلك منسية

لاصاحب يذكرني او رفيق

اواه:ما اقسى الردى ينتهي

بنا الى كهف الفناء السحيق

لقد اتخذت فدوى من مظاهر الطبيعة وسيلة للتعبير عما في نفسها فهي ليست منفصلة عنها وانما نراها خلال الامها وافراحها شخوصاً رفيقة تشاركها الهموم فتبثها شكواها :

تقول مخاطبة شجرة الزيتون[٢٩]

نجيتي انت وقد عزني نجي روحي ياعروس الجبل

دعي فؤادي يشتفي منه لعل في النجوى شفاء ، لحل !

ونلاحظ انها في هذه القصائد لاتقف امام ظواهر الطبيعة كي تصفها وانما لتلقي اسئلة تعذب نفسها . فهي لاتصور شجرة الزيتون دائماً تسالها لتتحقق من مدى مشاركتها في افكارها واحاسيسها :

ياليت شعري ان حضت بي غداً

عنك يد الموت الى حفرتي

تراك تنسين مقامي هنا

وانت تحنين على مهجتي ؟ !

تراك تنسين فؤاداً دعت

اسراره اغصانك الراحمات

باركها الله فكم ناغت

وهدهدت اشواق الصارخات

وهكذا نرى ان الطبيعة في شعر فدوى كثيراً ما تتحول الى شخوص حية تجاذبها الحديث وتسالها عن حقائق الوجود .

وفي تأملها للطبيعة تنقلنا احياناً الى مفاهيم تنم عن احساسها بمشكلات مجتمعها واكتوائها بأوار قضاياه ، ففي قصيدتها " مع سنابل القمح"(٣٠) ترتبط همومها الذاتية بهموم الانسان المستغل ، فتقول :

تأملت في السنبل الوادع

يمرح في الحقل زكياً غساه

تكاد في سكونها الخاشع

تسمع في السنبل نبض الحياة

في رؤى خيالها الشارد

منجذباً بروعة السنبل

لاحت لعينيها يد الحاصد

يخفق فيها شبح المنجل

رات رغيفاً جبلته دموع

دموع قلدودين مستضعفين

اضناه حرمان وبؤس وجوع

هانوا على الرحمة والراحمين

وتنقلها هذه اللغة اللفتة الانسانية الى التساؤل عن حقيقة هذا الوجود وسر قوى القضاء الغمض ومن يمطر الرزق على ذوي الثراء ويمسكه عن المعدمين . انه الظلم الذي ينشره البشر على هذه الارض وعندما تصل الى هذه الحقيقة لاتملك غير الامس والقلق المبهم الحائر ..

ثانياً- الهروب من الواقع والبحث عن المجهول :

ان الظروف والملابسات التي احاطت حياة الشاعرة كان لها بلاشك اثرها الكبير في اتجاهاتها الشعرية لاسيما في تلك المرحلة من حياتها ، لقد فقدت الشاعرة الكثير من مقومات الحياة الهانئة التي تملأ النفس بالرضى والاطمئنان هذا بالاضافة الى وجودها وسط مجتمع يؤمن بتقاليد وقيم تحجر انسانيتها وتقيم حولها الاسوار والقيود وليس هذا فقط بل وجدت باحاسيسها الشاعرة ان هذا الواقع لاينسحب عليها فقط بل ينسحب ايضاً على كل انسان في هذه الارض ، فكرهت فيه هذه المفاهيم ، وانكرت هذا الفناء الذي ينتهي بكل شيء على هذه الارض ورائها سيل الدماء وبطش الاقوياء والرزايا الكبار ، ولذلك فقد اخذت تتمرد بروحها وعقلها .. وتجسد هذا التمرد في الهروب الى عالم اخر .. عالم عبقري يرسمه خيالها الطليق : نلمس هذا في قصيدتها

" هروب "[٣١] التي تقول فيها :

اراعك في الارض سيل الدماء
وبطش القوي والرزايا الكبر
اراعك فيها شقاء الحيـــــاة
اراعك فيها صراع البشر ؟
امن صرخات القلوب الدوامـــي
تقضي عليها نيوب القدر
تلوذين في لهف ضـــــارع ..
يكون تسامى نقي الصور
بلى هي هذي الماسي الكبـــار تعذب فيك الشعور الرقيق
فتنأينه عن واقـــع راعـــب
الى عالم عبقري سحيق

هو الوهم ، عالمك الشاعري ، المثالي ، مسرى الخيال الطليق

ثالثاً – الاحساس بالوحدة والقلق :

حين نقرأ قصائد فدوى لاسيما فـي ديوانهـا الاول والثـاني نجـد ظـلال شخصيتها تهيم على اجواء معظم هذه القصائد ، وتتجسد بوضوح فـي قصـائد منفردة حيث ترسم الشاعرة شخصية قلقة ذات نفس مرهفة مغلفة بتشاؤم مرير وحيرة مقيمة مضطربة لاتعرف لها قرار تقول في قصيدتها " اشواق حائرة "[٣٢]

نفسي موزعة ، معذبـــة بحنينهـا بغموض لهفتهـــا
شوق الى المجهول يدفعها مقتحمـاً جـدران عزلتهـا
شوقي الى مالست افهمـــه يدعوا بها في صمت وحدتها

اهي الطبيعة صاح هاتفها

اهي الحياة تهيب بابنتها

ماذا احس ؟ شعور تائهة

عن نفسها ؟ تشقى بحيرتها

ونلمس هذه الاجواء في قصائدها " حياة"[٣٣] و "طمأنينة السماء"[٣٤] وفي " ضباب التأمل"[٣٥] التي تقول فيها :

وتململت بقفار قلبي ، في فراغ توحدي

نفسي تسائل نفسها في حيرة وتردد

لم جئت للدنيا ؟ اجئت لغاية هي فوق ظني ؟

املأت في الدنيا فراغاً خافياً في الغيب عني ؟

ومن الملاحظ ان اكثر قصائدها في هذا الاتجاه تقوم على التساؤل الذي يستبطن وجدان الشاعر ويصور عالمه النفسي حاملاً بالاضطراب والبلبلة ويربط بين ذلك وعالمه الخارجي ، وقد تستمر الشاعرة طويلاً في رسم هذا الوجدان المضطرب قبل ان تصل بنا الى التصريح بسر هذا الاضطراب او مصدر هذا القلق . كما تقول في نهاية قصيدتها :

ان كان يجري في وجودهم امتداد للوجود

صور ستبقى منهم يحيون فيها من جديد

فانا سامضي ، لم اصب هدفاً ولاحققت غاية

عمر نهايته ضواء فارغ ... مثل البداية

هذي حياتي ، خيبة وتمزق يجتاح ذاتي

هذي حياتي فيم احيائها ؟ وما معنى حياتي

هذا الاحساس بالقلق وهذا الطابع الحزين الذي تعكسه فدوى في شعرها هو ماتراه في ادب الكثيرات من نسائنا المعاصرات اللواتي حفظتهن الظروف في صراع منهك بين شدة الطموح وعجز الوسيلة .

رابعاً - الاحساس بالقهر الاجتماعي :

على الرغم من الانطلاقة القومية لقضية المرأة التي فجرها قاسم امين في مصر وتبناها كل من الشاعرين الزهاوي والرصافي في العراق ، وعلى الرغم من خروج المرأة من وراء الاسوار الى ميادين الحياة المختلفة واثبات وجودها في تلك الميادين الا ان محنة الصراع بين الاصغاء الى دعاة التحرر وبين رواسب الموروث القديم ظلت كامنة في اعماق المرأة العربية ولاسيما الادبيات اللواتي عشن وسط مجتمعات محافظة واسر لاتزال متمسكة بالنظرة القديمة للمرأة ، فقد احست المرأة العربية المعاصرة بانسانيتها حين تنسمت افكار العالم المتحضر ، وحين تلفتت حولها وجدت نفسها لاتزال محاصرة بتقاليد وظروف لها ثقلها وقدسيتها واحترامها في عقول ونفوس الذين حولها .. فماذا تفعل ؟ هل تخرج على تلك التقاليد وتعلن تمردها فتوصف بالانفلات والخروج عن مجتمعها كما فعلت بعض المتحررات من ادبيات لبنان ؟ ام تظل ترسف في تلك القيود وتكبح احاسيسها المتطلعة لحياة افضل ؟ . وامام تلك الحقيقة كان لابد ان تقع في صراع نفسي ، وان تتمرد بين الحين والاخر ولكنه تمرد خجول صامت تغلف باردية من الحزن والالم والحيرة النفسية .

ولعلنا نستطيع ان نتبين ذلك في اماكن عديدة من شعر فدوى ، ففي قصيدتها "حياة"[٣٦] نسمعها تقول :

وهذا شبابي
امان كوابي
شباب سقاه الاسى وراءه
اذا مادعته اليها الحياة
واشواقها ، شدة الف غل
وطوقه الف طوق مذل
شباب عذاب
رهين اغتراب
يضيع شذاه باسر القيود :

وحين يعتريها الاحساس بالعجز امام تلك القيود تنطلق روجها احياناً الى التهويم في رحاب الاجواء القدسية علها تجد عند خالق هذا الكون منفذاً يحرر روحها :

انا يارب قطرة منك تاهت

فوق ارض الشقاء والتنكيد

فمتى اهتدي الى منبعي الاسمى وافنى في فيضه المنشود

ضاق روحي بالارض ، بالاسر ، بالقيد ، محرر روحي ومن قيودي

ضمني ، ضمني اليك ، فقد طال انفصالي ، وطال بي تشريدي[٣٧]

غير ان ضيعتها سرعان ما يتحول الى تمرد واضح تكشف عنه صراحة في قصيدتها "من وراء الجدران"[٣٨] التي ترسم فيها هذا القهر الاجتماعي سجناً رهيباً لوأد البريئات منذ كر الدهور ولايزال قائماً فتقول :

بنته يد الظلم سجناً لوأد البريئات امثاليه

دكرت دهور عليه وما زال يمثل كاللعنة الباقية

وقفت بجدرانه العابسات قد عفرت بتراب القرون

وصمت بها : يابنات الظلام ومابدعه الظلم والظالمين

ويتعاظم احساس فدوى بثقل القيود حين تجدها وحشاً كاسراً يخنق كل حلم نصر، وحين يسحق كل برعم صغير فيذوي تحت اصفاده ، وحين يعتصر كل امل لينتهي امام جبروته بالموت ...

ولكنها مع هذا الاحساس ، تحاول ان تقاوم وان تقف بوجه هذا السجان الكبير فتقول بنغمة تفوح منها رائحة التحدي :

لعنت ، سواي امامك تعنو

وتخرسها غضبان الطغاة

ولكن مثلي ستبقى برغمك

بنت الطبيعة بنت الحياة

اغنى ولو سحقتني القيود

اغاريد نفسي واشواقها

تبارك لحني امي الحياة

فلمني من عمق اعماقها

خامساً – الظمأ الروحي والعاطفي :

قد يكون تعبير المرأة عن عالمها الخاص والاعلان عن عوطفها صراحة ، امراً غير مقبول لدى المجتمعات العربية لاسيما البيئات المحافظة التي لايزال الموروث القديم يتحكم في نفوسها وفي تفكيرها ، فماذا تفعل المرأة امام هذه الحقيقة ؟

"لقد وجدنا بالامس القريب الشاعرة عائشة التصورية تتكلف الحديث عن اشواق المحبين ومواجدهم لاعن اشواق حواء تحب . وكانت تتكلم مستعيرة لسان الرجل في الافصاح عن وجدانها . اما ام نزار فقد اطلت بنا عن قرب وباسلوب مباشر على عالم المرأة حين تحدثت عن الشجون المبهمات التي تجدها المرأة في اعماقها صدى للكبت الطويل ، وسمعنا في شعرها اشارة الى السر الغائب الذي يتغلغل في خفايا ذاتها وتحاول عبثاً ان تهتدي اليه ، كما سمعنا لهاث الظمأ العاطفي الذي طال عليه الاحد وهو مختنق بالوأد والكبت ، ولمحنا بوادر هذا الصراع الذي بدأت المرأة العربية تكابده منذ اصغت بكل روحها الى دعاء الحرية وعز عليها ان تجيب النداء"[٣٩] . فماذا عن فدوى طوقان الشاعرة التي عاشت وسط ظروف القهر الاجتماعي في الوقت الذي مقاييس العصر تشهد انتصار معركة تحرير المرأة ؟ .

ان فدوى الفتاة العربية التي نشأت على احترام التقاليد .. هي في الوقت ذاته فتاة لها عالمها الوجداني الخاص ولها احلامها في الفارس المنتظر الذي يأتي يوماً ما .. ليملأ فراغها العاطفي ويغمرها بالحنان والحب اللذين اقفرت

حياتها الاسرية منهما .. لقد كانت فدوى في امس الحاجة الى مثل هذه العاطفة بعد ان خوت ايامها وطال بها الانتظار الذي كاد ان يدفع بها الى الياس كما تقول في قصيدتها " من الاعماق"(٤٠) .

سرت وحدي في التيه لاقلب يهتز صدى خفقة بقلبي الوحيد

سرت وحدي لاوقع خطو سوى خطوي على المجهل المخوف البعيد

لارفيق ، لاصاحب لادليل ، غير ياسي ووحدتي وشرودي

وجمود الحياة يضفي على عمري ظل الفناء .. ظل الهمودي

هذا اليأس المدمر الذي امتلأت به جوانح الشاعرة لان حياتها اقفرت من قلب يتجاوب مع احاسيسها كما اقفرت من رفيق يملأ فراغ وحدتها .. وفجأة تلتقي بمن تصورته الفارس المنتظر .. فتتحرك في اعماقها نبضات الحياة وتتبدل نظرتها لكل شيء فالحياة الخامدة اصبحت في نظرها عارمة تنبض بفيض من الحنين والاشواق واذا الجمال يكون كل افاقها واذا بها تعيش في ظل حب عظيم مبدع خلاق .. لقد عبرت فدوى صراحة عن كوامن نفسها ولكنه تعبير لايتعدى البوح والافضاء بعواطف واحاسيس خاصة .. لم تستطيع ان تعلنها للحبيب نفسه فبقيت كامنة متوارية ... تقول :

ومضت بي الايام ، لا انا صرحت ، ولا لهفتي الحيية تبدو

كم وكم يحتوينا مكان

وانا صبوة توارت .. ووجد ..

ويظل الحبيب رغم هذا التصريح والبوح شخصية مجهولة لانعلم عنها شيئاً ولانجد لها صفة اورسماً سوى انه ابن الصحارى ، الذي تظل الشاعرة مع خياله تغني على وتر العاطفة في قصائده عدة منها "غب النوى"(٤١) و "الى صورة"(٤٢) و "الصدى الباكي"(٤٣) و "في محراب الاشواق"(٤٤) و "قصة موعد"(٤٥) وقصيدة "وجود"(٤٦) . وعندما طال النداء ولم يعد هذا الحبيب الذي تحولت عودته عندها

الى خرافة ، اكتفت من هذا الحب بتحويله فراغ حياتها الى غنى وامتلاء واكتفت منه انها تعيش على امل اللقاء به مرة اخرى .

كفاني بان الهوى قد احال فراغ حياتي غنى وامتلاء

واني واياك قصة حب يخلدها الشعر رغم الفناء[٤٧]

لقد اباحت فدوى بوجدانها ، وشكت ظمأها العاطفي وعبرت عن جراحها الوجدانية ، ولكن دون عري او ابتذال ، وقد استغرق هذا البوح وهذا الافضاء من ديوانها الثاني "وجدتها "قصائدها" " ذكريات"[٤٨] و "انتظري"[٤٩] و "هل كان صدفة"[٥٠] و "العودة"[٥١] و "هل تذكر"[٥٢] و "كلما ناديتني"[٥٣] و "حتى اكون معه"[٥٤] و "القيود الغالية"[٥٥] و "تشك بحبي"[٥٦] و "ساعة في الجزيرة"[٥٧] و "انا والسر الضائع"[٥٨] . ومن الجدير بالملاحظة ان فدوى في ديوانها الثاني بدت اكثر صراحة واكثر جرأة في الكشف عن اسرارها الوجدانية ، بل ان صراحتها قد تخرج احياناً عن الحد المباح لاسيما في مجتمع لايزال ينكر على المرأة ان تكشف عن عواطفها ، فعزة المرأة في تمنعها ورزانتها : ومن ذلك تقول :

نادني من اخر الدنيا البي

كل درب لك يفضي فهو دربي

ياحبيبي انت تحيا لتنادي

ياحبيبي انا احيا لالبي

صوت حبي

انت حبي

انت دنيا ملء قلبي

بكنوزي كلها ملك يديك

بينابيعي ، باتهاري ، بخصبي

ياحبيبي[٥٩]

من الجدير بالملاحظة ان هذا الجانب من الوجدانية الذاتية استغرق مساحة واسعة من دووايين فدوى الثلاث الاولى ، سجلت في كل ديوان مرحلة من مراحل حياتها الوجدانية فمثل ديوانها الاول " وحدي مع الايام " مشاعر الضياع والحرمان والبحث عن المجهول ، وفي ديوانها الثاني " وجدتها " استطاعت ان تتخطى هذا الضياع وتعبر عن انفتاحها على الحياة وتعلن تمردها على قيودها عن طريق الاندماج في الحب والبحث عن الحبيب

حيث تقول :

حياتي ياعباس حلم

مروع الاشباح

حلم اطبقت علي به جدران سجن

داج رهيب النواحي

عشت فيه مخفوقة ظمأى

لندى الفجر ، للشذى للنور

الهواء الثقيل يكتم انفاسي وقيدي

يغل دفق شعور

الى ان تقول :

كان لي الحب مهرباً احتمي فيه

أي افر من ماساتي

كان دنيا في افقها الرحب استرجع حريتي

احقق ذاتي

وبعد هذا الاعلان والتصريح هل استطاعت فدوى فعلاً التحرر من ذلك الصراع بين المحتكم في نفس المرأة من العادات الموروثة وبين ماتدعوه بالتحرر ؟

تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن : " اننا لانخطيء في هذا الضجيج الصاخب باغاني الهوى ونشوة الفرح ، اصداء القيود ، وصليل اسلاسل ، بل ان فدوى نفسها تصغي الى ذلك الصليل في القصيدتين من ديوانها وجدتها : "دوامة الغبار" و "هو وهي" وكانها اجهدتها محاولة التظاهر بالافلات ، فانثنت في استسلام بعد كل ذلك الضجيج ترقب الصراع المحتدم في اعماقها" (٦٠)

وهتفت باسى :

الهواء الثقيل يكتم انفاسي وقيدي

بغل وفق شعوري

كلما ضقت بالظلام وبالكبت تلفت

مثل طير مكبل

عل فجر الخلاص يلمع ، لاشيء سوى الليل

ليل سجني المفضل

واذا انشق باب سجني اطلت

منه عين وحش رهيب كبير

لقد تصورت فدوى بهذا الاعلان الصريح عن مكنون نفسها انها تحدث السجن والسجان وانها سحرت بالعرف والتقاليد وان شعرها هو مرأة لكل فتاة مظلومة كما تقول :

من وراء الاغلال من تحت قبري

اتحدى السحاب ، اسخر بالعرف

بما شادت التقاليد حولي